

الأستاذ: عبد الرؤوف عباس، محاضر أ - كلية الآداب - جامعة حماة لخضر، الوادي
تداولية الفصحى بين اللغة والمنهج والطرق التعليمية
مقدمة:

المشكل الذي تعانيه البلدان العربية هو وجود مستوى واحد من التعبير في تعليم العربية، وهو أسلوب تعبير واحد يمثل المستوى الأدبي (الترتيلي)، وهذا جعل العربية تبتعد من الحياة اليومية شيئاً فشيئاً مما جعل العامية تحتل مكان العربية الخفيفة التي تقتضيها الحياة اليومية لعدم اهتمام المدرسة بها، فلماذا نسعى لحل هذه المشكلة؟ وما الوجهة العلمية المناسبة لإعطاء حلول عملية فعالة بعيداً عن الموعظة وما يتوقف على إثارة العاطفة والنخوة العربية؟

جاءت هذه المداخلة لتتنظر إلى هذه القضية من عدة محاور: الجانب المنهجي، الجانب اللغوي، الجانب التعليمي، الجانب السياسي

1- أولاً: المحور المنهجي:

1-1- تداخل الظواهر يخلق الحاجة إلى المنهج:

إنّ تحوّل الأشياء عبر الزمان - إذا كنا نقصد الأوضاع الاجتماعية والثقافية - قد يتوقف من بعض جوانبه إذا توقّرت بعض الشروط وقد تحدث موانع قوية تصده وتميله عن وجهه فيبقى على ما كان عليه في جوهره الأوّل

الظروف الاجتماعية والثقافية لها علاقة واضحة فهي مجموعة من الظواهر بداخلها الظاهرة اللغوية فلا سبيل للنظر فيها إلا بالنظر في مجموع هذه الظواهر، لأنّ اللغة هي الأداة التي يُعتمد عليها في تحليل الواقع، ثم هذا لا ينفصل عن النظر في كيفية استعمال اللغة ذاتها في الحياة اليومية، ومدى مشاركة العامية لها في مختلف المستويات في المحتوى اللغوي الذي يتلقاه الطفل في البيت والمدرسة وفي وسائل الإعلام، وفي هذا المحتوى الكثير من الألفاظ المترادفة والألفاظ الغريبة التي لا يحتاج إليها متعلم اللغة، ثم عدم استجابة هذا المحتوى لكثير من المسميات التي تطلبتها الحياة المعاصرة كأسماء بعض الملابس والأدوات والمرافق

كذا الهوة التي حدثت في اللغة من وجود مستويين من التعبير مستوى تحرير ومستوى مشافهة بسبب عدم الاهتمام بتسمية ما يحدث من مبتكرات لأن ما تدل عليه من مبتذلات الحياة اليومية وأن العربية أرفع مقاماً من هذا وهذا يجعل اللغة أدبية محضة لا لغة مشافهة وتحرير خاصة بما تعود عليه البلاغيون المتأخرون من نصح المتعلم بالابتعاد عما تبتذله العامة من ألفاظ، وهذا يجعل العربية بعيدة عن ميادين الحياة التي يشترك فيها العامة والخاصة وهذا أدى إلى بطء في الإبداع الفكري

ولا تؤدي اللغة وظائفها الأخرى بعد التبليغ من بناء شخصية الأمة وتوحيد كلمتها إلا إذا استعملت في ميادين الحياة العامة، والضعف في انتشار اللغة والضعف في التعبير بها راجع إلى ضعف أهل اللغة لا إلى اللغة ذاتها، يقول الحاج صالح: «لا نثهم اللغة في ذاتها، إنّما الذي نستضعفه هو كيفية استعمال المربين لها، .. أما كون العربية لا يوجد فيها ما يكفي للتعبير عن المسميات المبتذلة في البيوت والشوارع والمعامل، فهذا راجع لكسل أهلها وضعف اعتناء منهم لضعفهم في أنفسهم؛ لأنّ اللغة سماع وقياس خلاق يترأى في كيفية استعمالها ضعف أصحابها» (1)

المشاكل التي تمس تعليم العربية وتدرسيها كثيرة، وحلولها لا تكون إلا بالبحث العلمي الميداني والاستعانة بما توصل إليه البحث التربوي والنفسي اللغوي والاستعانة بالبحث الاستقرائي والإحصائي، لأنّ الأسباب متعددة ولا يكاد ينفع في حلها الوعظ والإرشاد، وطالما اشتكى العلماء منذ أمد من ضعف التعبير(2)

1- 2- بناء المنهج:

مما نجح فيه المستشرقون هو خلق الهوية بين المستوى العفوي والمستوى المقامي في العربية وتسمية العربية باللغة الأدبية، وهذا نابع من إدراكهم أنّ نجاح بعث العربية المقامية من جديد هو بعث للثقافة التي تحملها، وإحياء للتصور العربي للكون، وهذا الأمر يرتبط بمعرفة مكّونات المنهج الأدبي: الذي يمثل كل ما هو صادر عن الإنسان إبانة عن نفسه وعن جماعته(3)، ومكّونات هذا المنهج هي (اللغة، الثقافة، الذات)

أولاً: اللغة: هي الوعاء لهذا المنهج بكونها وعاء المعارف

ثانياً: الثقافة: التي هي ثمرة هذه المعارف(4) التي يؤمن بها الإنسان وينتمي إليها ويعمل بها، وعلى رأسها الدين ثم السلوك والعادات والتقاليد والمكتسبات الاجتماعية وغيرها

ثالثاً: الأهواء أو الذات الإنسانية بما فيها من الطباع والغرائز والأهواء المتنازعة بين الخير والشر وبين القوة والضعف، وما جانب الشعور بالوهن عند المسلمين اليوم في لغتهم - بعد أن كانت لغة العلم والحضارة - إلا من هذا القبيل؛ فالمسلمون لما انهزموا في داخلهم انهزمت الدنيا كلها أمام أعينهم

معرفتنا بما يبني المنهج تدعونا إلى إعادة النظر في كل ما هو متصل بالمنهج الأدبي أمر حقيق باللغة العربية والتراث الأدبي والحضاري، ومن ذلك التخلي عن التبعية للغرب في أدبهم ومناهجهم، فمذاهب الأدب عندنا هي مذاهب الأدب في الغرب: **فالمرمزية** بنت الأفق الغائم يراد لها أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح، **والحدائثة** وليدة الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة المنفلتة يراد لها أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الإلهية التي كرمت الإنسان وفضلته فلا يتعدها ولا يتحداها بعقله وإيمانه، فالعربية جزء من حقيقة الإسلام نشرها الدين بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده، فأنزل الله عز وجل كتابه بها وتكفل أن يحفظها بحفظه، قال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»(5)، فأن يدرس المتخصصون هذه النظريات مفيد لكن أن نغرق فيها مناهجنا التعليمية وتنشأ فيها أجيالنا دون تمحيص فهذا بلاء للعلم والحضارة العربية

ولذلك يصبح من الخيال أن نتكلم ونؤكد على اللغة العربية والواقع الأدبي يسير باتجاه ثقافات اللغات الأخرى، فأوائل من كتب في الأدب في عصرنا أدخل فكر الاستهانة بالتراث فأدى إلى نفور الأجيال عن تعلّم العربية والنحو، وتدرّس بعض العلوم في الجامعات بغير العربية، مع وجود القدرة والكفاءة على التعريب، مراسلات والرسائل الإدارية والفواتير والوصفات الطبية و... تكتب بغير العربية فأين العجز؟

وازدواجية الفصحى والعامية موجودة في كل لغة لكن العجيب أن يُجعل هذا سبب لتخلفنا(6)، وتثبت التجارب أنّ وجود العامية لا يخلق مشكلاً أمام مكتسب الفصحى، وكل لغة لها مستوى أدبي ومستوى عفوي لكن إذا اختلف المستويان وصار الثاني لهجة عامية مُتَغَيِّراً وضعها في جوهره، فالمشكلة عندها أن يترك لهذه العامية السيادة في التعبير الاسترسالي ويُتناسى أن الفصحى يمكن أن تقوم بهذا الدور الحيوي بشرط أن يُرجع فيها إلى المستوى الذي استخفّه العرب الذين أخذت منهم اللغة(7)

1-3. تحقيق اللغة تحقيق لأهم شرائط المنهج:

في حديثنا العادي كثيراً ما نستعمل الفصحى حينما نكون مضطرين للحديث عن حقائق منظمة وأفكار متسلسلة لأننا نرى أن العامية لا تسعفنا بتراكيبها مما يضبط تفكيرنا وينقله نقلاً صحيحاً إلى الأذهان، فإذا لم تكن العامية مستعملة في التفكير تقطعت بنا سبل التفكير الصحيح والصلة بحضارتنا، لأنّ اللغة هي القالب الذي يُصب فيه التفكير، وكلما ضاق هذا القالب واضطربت أوضاعه ضاق نطاق الفكر واختل إنتاجه، وضعف التصوّر والبناء، مما يستدعي النظر في شرائط المنهج(اللغة والثقافة والأهواء)، لأنّ طغيان العامية على مرّ الأجيال يحول بيننا وبين التراث المدوّن بالفصحى، فقد كانت العربية هي لغة العلم والمعرفة وكان اللسان العربي هو البوابة التي يمكن للمتقف أن ينتقل عبرها إلى دنيا الحضرة والرقى

1-4. وظائف اللغة:

اللغة أهم شرائط المنهج ومكوناته، والنظر إلى اللغة كأداة للتواصل يحجب عن المهتمين أهمية المحتوى الثقافي الحضاري الموجود في كل لغة، والحقيقة أنّ اللغة: - أداة للتفكير(الثقافة هي عنصر التفكير ومادته التي تغذيه) - أداة للتواصل وبناء العلاقات الاجتماعية - أداة للتصوّر والعمل والتأثير: حين نتكلّم بنبي المثل ونحقق القيم الكامنة داخل لغتنا(تفاضل الحضارات بتفاضل اللغات، بما تبنيه كل لغة من مثل عبر تاريخها الطويل)

أفرز هذا التصور الثلاثي نظرية تصوّر الكون لادوارد سابير(8) فلا نرى في هذا العالم إلا ما تربينا إياه لغتنا: فنستفيد المفاهيم من مفرداتها، والعلاقات من نحوها، وكل جماعة تمتلك لغة واحدة لها تصور متقارب للعالم، من هنا تتأسس الهويات واللغة هي العنصر المؤثر على الثقافة والذات، بدليل أن الدول المتعددة اللغات متعددة الثقافات والديانات، لأنّ اختلاف اللغة يجعلهم يتصوّرون الأشياء تصوراً مختلفاً، والأمة العربية وحّد الله لها لسانها حتى لا تختلف على كتاب ربها، لهذه الحكمة قيّدت لغة القرآن كل اللهجات العربية بها، ومحو لغات العرب كلها على فصاحتها وقوّة الفطرة فيها، وردّها إلى لغة واحدة، لذا فإحياء المستوى العفوي ليس هو إقحام مفردات العامية وتراكيبها في العربية، بل إحياء المستوى الخفيف من العربية الفصحى بنشر التعليم واستعمال الفصحى، لأن العاميات نفسها إذا تباعدت وتشتتت دخلها اختلاف التصوّر من هذه الجهة، أمّا ردها إلى العربية المخففة يعني توحيد التصوّر ومن ثم توحيد الأمة

ما دامت العربية كأداة لبناء التصوّرات ورؤية العالم، فإنّ بقاء العربية لغة للإسلام معناه بقاءها بانية للعقل الذي يتلقى الدين والتراث والحضارة كما تلقاها العرب الخالص، بالتالي محافظتنا على هذه اللغة هو محافظتنا على ما يبني لنا عقولنا وأذهاننا بفكر يتلقى التراث ويتصوّره كما تلقاه الرعيل الأوّل

1-5. العولمة اللغوية:

إذا سقطت الدارجة في وجه العولمة اللغوية فإنّ الدفاع عن الفصحى سيضعف، وكل لغة تحمل حمولة ثقافية وهي حقيقة لا يمكن أن تبرأ منها لغة، والرجوع إلى العربية هو رجوع إلى الهوية وليس انسلاخا منها، وما حوربت العربية إلا لكونها لغة القرآن الذي هو بناء للفكر ببنائه للتصوّر الإسلامي، وهو الدافع لنشر العربية في زمن صدر الإسلام، ورجوع العربية يعني الارتباط بالتراث، والابتعاد عن العربية يعني الابتعاد عن التراث الإسلامي الذي دوّن بها، فهجرانها واستخدام العاميات مكانها يعني أننا بعد جيل أو جيلين سنفقد معرفتنا به، ونعجز عن قراءة التراث الحضاري الضخم المدوّن بها باستثناء من تخصص ليدرس العربية كلغة دينية فقط، وتصبح العاميات كقوميات محلية كأنّها أمم حديثة الحضارة لا جذور لها مما يمهّد الطريق أمام دعوات وعمليات التغريب التي يراها أعداء الأمة

الدعوى بعدم صلاحية الفصحى منقوذة؛ لأنّها لغة مستوفية القواعد متنوعة الأساليب مما يناسب المعاني، أما العامية تخلو من البناء الإعرابي وتعتمد لبيان علاقات الجمل على الموقع الثابت للوظيفة؛ للفاعل موقع ثابت، وللمفعول موقع ثابت، بينما المواقع في الفصحى حرة لاعتمادها على الإعراب في بيان العلاقات الجمالية، مما يعطي أكثر فسحة لمستعملها، كما تعتمد العامية الأساليب المباشرة وتقتصر على الضروري، لهذا العامل يرجع السبب في انقراض الآلاف من الكلمات العربية من لهجات المحادثة المعاصرة، والعامية أقرب إلى الفصحى في الفهم بدليل فهمهم للخطب والقرآن لكن الذي يفوتهم هو فهم بعض الكلمات، والقصور عند العامة يظهر عندما يحاولون التحدّث بالفصحى، وهذا أمر يمكن التغلّب عليه بالتعليم والممارسة، وما دامت الأمة روحا واحدا بالقرآن ولسانا واحدا بالعربية فإنّ استغلال العربية كلغة متداولة وإن طال فهو متوقّع

1-6. قابلية العربية للتلقي:

العامية ليست سببا لضعف العربية إنما هي نتيجة فلو تقوى العربية ستضعف العامية بدليل تأثير العربية على اللغات قديما؛ حيث استطاعت أن تخضع كل لغة في كل بلد حتى صارت لغة الدين والسياسة والإدارة والحضارة، فلما اختلف اللسان افترقت الأمة، ولا سبيل لوحدها إلا بأن تكون العربية لغة العامة لأنّ لها ما للإسلام من قوة الانتشار بحلاوة جرسها وغنى أسلوبها، وتاريخ العرب مع القبطية في مصر والرومية في الشام والفرسية في العراق والبربرية في إفريقية معروف، وليس سلطان العرب هو الذي مكّن لها في هذه الشعوب وبسط لها هذا النفوذ؛ فإنّ اللاتينية غزت المغرب والمشرق وكان وراءها إمبراطورية الرومان، والتركية غزت المشرق وكان وراءها الخلافة العثمانية، ومع ذلك ظلت اللاتينية والتركية لسانا للإدارة والجيش لا تتعداهما إلى البيت والسوق، كذا يمكن أن نشير إلى أمر آخر هو قدرة

المسلمين الأوائل على نشر اللغة العربية بوسائل بسيطة، وعجزنا - في عصر التطور التكنولوجي - عن نشرها على الرغم من أننا نعيش في زمن الإنترنت والبث الفضائي

مرت بالعربية فترات ضعف في الحفاظ عليها والنطق بها واستعمالها، تجاوزتها منتصرة، وقد سجل ابن منظور حال اللغة في عصره (9) وأنّ اللحن كان متفشياً وأنّ أهل اللغة كانوا يتفصحون بغيرها، وأنّ النطق بها كان يُعد من العيوب، وذلك كان زمن ابن منظور أي أيام الحروب الصليبية حين توافدت أمواج اللغات الإفرنجية على العربية

يتبيّن مما تقدّم أنّ العربية لغة توتّر ولا تتأثّر، يقول المستشرق يوهان فك: «وهي أنّها قد قامت في جميع البلدان العربية رمزا لغويا لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، وقد برهن جبروت التراث العربي التّالّد الخالد على أنّه أقوى من كل محاولة يُقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوارد ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ أيضا بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية ما بقيت هناك مدنية إسلامية» (10)

2- ثانيا، المحور اللغوي:

2-1- البحث التداولي واستعمال العربية:

ساد الكثير من مفاهيم اللسانيات الحديثة الأوساط العربية خاصة بعد أن انتبه علماءنا إلى ضرورة التجديد للمنظور التاريخي الذي ساد الدراسات ومن بين هذه المفاهيم (مفهوم التداولية)، لكن الواقع أنّ حاجة البحث اليوم إلى مقولات الدرس الغربي الحديث وكشوفاته لا تلغي بأيّة حال حاجته القائمة إلى التراث العربي والإنساني على اختلاف مشاربه لتحديد رؤاه، وضبط أصول المعرفة الإنسانية لئلا تكون مسيطرة للفكر الحديث ومعزولة عن أيّ مرجعية أو هوية كما هو واقع اليوم في كثير من المجالات

2-2- مفهوم التداولية وتجلياتها في البحث النحوي والبلاغي العربي:

تعني دراسة اللغة حال الاستعمال، أي حينما تكون متداولة بين مستخدميها، وهو وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم (11)، يقول طه عبد الرحمن: «لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يميّز عن غيره من طرق معالجة المنقول باستناده إلى شرائط مخصوصة، يفضي عدم استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي، فضلا عن استناده إلى آليات صورية محدّدة» (12) فأهم ما يفيدنا هو الربط بين مباحث التداولية والبحث التراثي للوقوف على الخصائص المميّزة للخطاب العربي

2-3- التداولية في النحو العربي:

للنحاة العرب اهتمام بقيمة الاستعمال وما تتداوله العرب في اللّغة، يقول السيوطي: «إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه» (13)، يقول عبد الرحمن الحاج صالح: «أفعال

المتكلم إذا تكلم بأفعاله عند النحاة، هي استعمال منه لألفاظ اللغة وعمل بحدودها النحوية لإعلام المخاطب عن شيء» (14)

تكلم سيبويه في كتابه عن حالات استعمال اللغة ووجوه تصرف الكلام الجاري على الألسنة ومقاصده، وما يعرض له من عوارض، وميز كتابه بين اللغة وبين كيفية استعمالها حال التخاطب، لكنه كان يعبر عن مصطلح الخطاب بمصطلح الكلام (15)، يقول سيبويه «حذفوا الفعل في هذه الأشياء استغناء بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر» (16)، فلسان الحال، وجريان الذكر، والحذف كلها من أفعال الكلام، يقول الشاطبي: «إن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه عن مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتهم في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، وغير ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به حتى احتوى على علم المعاني والبيان، ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني» (17)

2-4. التداولية في البلاغة العربية:

تعد البلاغة نظرية متكاملة للتواصل، لأنها تهتم بدراسة التعبير على مختلف المستويات: اللفظية والتركيبية والدلالية، والعلاقات القائمة بينها، ودراسة اللغة حين الاستعمال قريب من مفهوم المعرفة باللغة أثناء الاستعمال، ويمكن أن نستشهد لذلك بما قدمه عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم، فهو في مؤلفه "دلائل الإعجاز" يُعقب كل مسألة أو حكم بمثال من القرآن أو الشعر ويحلله في ضوء هذه المسألة أو الحكم، وهذا ما زاد أبحاث البلاغة ارتباطاً بواقع استعمال اللغة وقوانين الخطاب، وهو المجال الحيوي للسانيات التداولية

والمصادر العربية التي اهتمت بالموضوع التداولي كثيرة، وإن اختلفت التسمية الاصطلاحية، قسم منها اهتم بالخصائص التداولية من جهة التأويل باعتبار مطابقة المقال لمقتضى الحال مثل: مفتاح العلوم للسكاكي، ومنها ما اعتمد على توليد الخصائص التداولية مثل: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، كما في خصائص ابن جني مباحث تداولية كثيرة

مثال: في ذكرهم قول الشاعر:

تَقُولُ وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِهَا أَبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسِ

يقول ابن جني: «فلو قالت: "أبعلي" من غير أن تذكر صك الوجه، لأعلمنا أنها متعجبة منكراً، لكنه لما حكى الحال فقال: "وصكَّت" عُلم بذلك قوّة إنكارها، وتعاضم الصورة لها» (18)

أما المباحث البلاغية في "مفتاح العلوم" عالجت تداولية الخطاب ومراعاة الكلام لمقتضى الحال، وكذا تداولية المخاطب بالاهتمام بالسامع وإشباع رغباته، والنظر إلى المخاطب حال كونه: خلي الذهن، أو متردداً، أو منكراً، فقولك: "عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، وقولك: "إن عبد الله قائم" جواب عن سؤال سائل، وقولك: "إن عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكّر لقيامه، فتميز بين ثلاثة مخاطبين (19)

2-5. إكساب الملكة:

اللغة كنظام تمثل أصل الوضع، والكلام الجاري في التخاطب هو استعمال حقيقي لهذا النظام، ثم إن أوضاع اللغة رسوم توضع فقط، لكن النحو كعلم غير أوضاع اللغة

لأنّها موضوع النّحو، واستنباط حدود هذا العلم وتفسيرها هو النّحو، وليس هذا العلم مأخوذاً من واضع اللغة بالتقليد أبداً، إنّما التقليد راجع إلى النّاطق الخاضع لوضع اللغة (20)

يقول عبد القاهر الجرجاني: «لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط وبم يعرف المبتدأ والخبر وشيئاً مما يذكرونه لا يتأتى له نظم الكلام، وإنّا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في النحو... إنّ الاعتبار لمدلول العبارات لا لمعرفة العبارات، فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: جاءني زيد راكباً، وبين قوله: جاءني زيد الراكب لم يضره أن لا يعرف أنه إذا قال راكباً (كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في (راكب) أنّه حال وإذا قال (الراكب) إنه صفة جارية على زيد) (21)

يتبين من هذا القول أن متكلم اللّغة وإن كان لا يعرف النّحو معرفة علمية إلا أنّه يعرفه معرفة مكتسبة وهي معرفة من نوع المهارة لذا كان ينبغي إيجاد الوسائل التعليمية المناسبة لإكساب المتعلم هذه المهارة قبل تعليمه القواعد لأن علم النحو هو نتيجة أعمال الفكر في بنية اللّغة، لذا كان الأمثل في اكتساب اللغة هو ممارستها في المواقف الحقيقية عبر السماع والقراءة قبل تعلم قواعدها؛ يقول ابن خلدون: «ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم .. ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم؛ فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتها رسوخاً وقوة... ومن حصل على هذه الملكات، فقد حصل على لغة مضر» (22)

إنّ الرصيد المعرفي الذي يكتسبه الطفل في البيت والشارع قبل مرحلة التّمدرس هو ما يمثّل اللّغة العامية أما ما نطمح إليه من إيجاد عربية فصيحة مستخفة فهذا يحتاج منا إلى إشباع الطفل برصيد معرفي واسع من هذه اللّغة في المرحلة التعليمية الأولى حتى يكتسب الملكة الأساسية التي تمثّل العربية المستخفة لأنّه يجب أن نمرّن المتعلّم على تراكيب العربية وأساليبها المستخفة حتى يسهل عليه فيما بعد إدراك القاعدة النّحوية إذا تعلمها لأنّ عدم معرفة الملكة يخلق هوة بين الملكة المكتسبة والقاعدة النّحوية عند المتعلّم فيقطع الصّلة بين القواعد وبين كلام العرب، أما إذا أكسبناه الملكة أوّلاً فإنّه يستطيع أن يستنبط بنفسه ودونما شعور الإطار النّحوي إذا تعرض لنص أو تمرين يحمل الكثير من التّراكيب المتفرّعة عن هذه الملكة فيكتسب المتعلّم لا شعورياً آلية تفريع الفروع اللّغوية من نظائرها يقول ابن خلدون: «أجرو صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النّظر عن التفقّه في تراكيب كلام العرب إلا أن أعربوا شاهداً أو رجّحوا مذهباً من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللّسان وتراكيبه فأصبحت صناعة العربية كأنّها من جملة قوانين المنطق العقلية والجدل، وبعدت عن مناحي اللّسان وملكته وأفاد ذلك حملتها في هذه الأمصار وآفاقها البعد عن الملكة بالكلية وأنّهم لا ينظرون في كلام العرب وما ذلك إلا لعدولهم عن

البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلّم» (23) لأن اكتساب اللغة هو قبل كل شيء اكتساب لمهارة التبليغ ما دام الأمر هو إكساب مهارة لغوية وهي ملكة اللغة فينبغي الاهتمام بالتراكيب أو البنى النحوية التي كثر مجيئها على ألسنة العرب، والتي يكثر دورانها في لغة التحرير، وتترك التعليقات والتفسيرات الهامشية والتعليقات المعقدة والشواذ، والوجوه الكثيرة المسموعة، بل يُنتقى منها ما هو مطّرد في القياس والاستعمال والمسموع الكثير، ويُكتفى بالقليل الذي قد يُساعد المتعلّم على ترسيخ المثل وربطها بغيرها؛ لأنّ النحو وإن كان شرطاً لحصول الكلام السليم إلا أنّه ليس ضابطاً للكلام كخطاب، بل المتكلّم يستغل إمكانيات النحو ليقس عليها، ويحدث التأثير في نفس المتلقي بخلقه لصور المعاني (إحداث النظر)

لذا نرى أنّ تعلّم النحو مفيد جداً للمتعلّم لبناء سياق كلامه على ما هو عربي لأنّه مقيس عليه، فهو منبع لإمكانيات التعبير، إذا أُضيف إلى المنبع الأكبر المتمثل في مجموع مفردات اللغة لإمكانية تجدد محتواها على قياس كلام العرب، لكن ينبغي أن نفرّق بين النحو كعلم يتمثل في مجموع الأصول التي تضبط السلامة اللغوية (24) وبين مجموع الأصول التي تضبط استعمال اللغة في الواقع، وتمرين المتعلّم عليها لإكساب الملكة

2-6- مستوى الفصحى والعامية: (ظهور العامية)

في عهد الفتوحات الإسلامية كان هناك نوع من التأثير المتبادل بين العربية والعربية المولدة التي نشأت عن التمازج مع الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، فكان نتيجة ذلك ظهور عربية منافسة للفصحى، واختصت كل واحدة بناحية من نواحي النشاط العقلي؛ فكانت الفصحى لغة العلم والبلاط، والعامية لغة السوق والسوقة إنّ المستوى الذي نقلته إلينا كتب اللغة والأدب ليس هو المستوى الذي كانت عليه العربية في زمن الفصاحة العفوية من التعبير الاسترسال العفوي الذي أهدر في التعليم المدرسي، وصار ينظر إلى كل ما يوجد في العامية غير لائق تعليمياً رغم تداوله في نصوص قديمة عربية

كما أنّ الذين أهدروا اللغة الأدبية المحررة -التي تمثل المستوى الأدبي الراقى- نسوا أنّ اللغة العفوية المستعملة أكثر عرضة للتغيّر والخطأ والتحوّل السريع يقول الحاج صالح: «إذا سلمنا بأنّ العربية أصيبت بالتغيير لا من حيث ثقل استعمالها وحلول اللهجات العامية محلها في الحياة اليومية، بل حتى في ذوات عناصرها ونظامها الصوتي، ونظامها الإفرادي، فإنّنا لا يسعنا أن ننكر أن نظامها النحوي الصرفي هو في جوهره نفس النظام الذي عرفته لغة القرآن» (25) فلا يجب أن نخلط بين نظام اللغة وبنيتها وما هو تحوّل زمني تصاب به فيصيرها إلى نظام آخر، وهذا يدفعنا إلى إعادة النظر في اللغة المستعملة اليوم لإمكانية بعث العربية وإحياء استعمالها كلغة متداولة، فنحصر المشاكل المحيطة بهذا الموضوع، ونحاول معالجتها، والتي منها:

2-7- اللغة الأدبية وتباعد لغة الخطاب

هناك عدم انسجام بين ما يتعلمه الطفل في المدرسة وما يلتقطه من الإذاعة والتلفزة وبين ما سجله اللغويون العرب من العبارات المختزلة التي تمثل اللغة العفوية يقول الحاج صالح: «إنَّ اللغة إذا صارت تكتسب الملكة فيها بالتلقين وإذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير وجماله فقط واستهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير وابتدال واسع للألفاظ تقلصت رقعة استعمالها، صارت لغة أدبية محضّة وعجزت حينئذ أن تعبّر عما تعبّر عنه لغة التخاطب الحقيقية سواء كانت عامية أم لغة أجنبية» (26)؛ لأنّ اللغة كما يقول ابن خلدون: «هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشيء عن القصد بإفادة الكلام» (27)

أصبحت الفصحى تمتاز عن لغة التخاطب بغرابة ألفاظها، وهذا الأمر أدى إلى خلق الهوة بينهما، وأدى بالمستشرقين إلى تسمية الفصحى باللغة الأدبية، أو العربية الكلاسيكية (28)، أو لغة الأدباء، ولم يثبت علماء العربية أنّ ما دونوه هو لغة الأدباء، ولم يثبتوا وجود تباين لهجي شديد الاختلاف إلى درجة عدم التفاهم، بل أثبتوا أنّ ما نقلوه هو كلام عامة العرب، يقول ابن جني: «هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته محتقر غير محتفل به ومعيج عليه، وإنّما هو في شيء من الفروع يسير، وأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه» (29)، ولعل أحوج ما تكون إليه العربية ليساهم في تيسير العملية التعليمية هو إعادة النظر في طبيعة اللغة ذاتها، وكيفية استعمالها، وعدم الانخداع بالنظريات الطارئة كما انخدع الكثير بنظرية داروين

2 - 8- العربية المخففة وامتداد العامية إلى الفصحى:

من يمعن النظر في كتب اللغويين العرب الأوائل كسيبويه (30) والجاحظ (31) والفراء (32)، وغيرهم يجد أنّ للعربية مستويين من التعبير: مستوى انقباض المتكلم وعنايته بحرمة المقام، وتحقيق الحروف، ومستوى تبدّل واسترسال وعفوية تعبير يستجيب لما يُسمى بمواضع الأُنس، فيه يكثر الإدغام والاختلاس والحذف للكلمات، وهو عربي، يقول الجاحظ: «هم أجدر أن يفصلوا بين مواضع أنسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم» (33)، وهذان المستويان من التعبير يحدثان في كل لسان، كما وجد المستويين في استعمال السليقيين من العرب كما ذكره الجاحظ، لكن ما يميّزنا عنهم أنّ كلا المستويين كان فصيحاً ولا يختلفان من حيث البنية اللغوية، أما ما نحن عليه اليوم فلغة التخاطب العفوي خرجت عن أصول العربية في أغلب أحوالها، فيجب أن نعمل على إرجاع المستوى الطبيعي للعربية حتى تغالب العامية واللغات الأجنبية، وذلك بخلق مستوى مستخف يغنينا عن العامية بما نحتاج إليه من خفة

والمستوى العفوي هو الذي تحتله العامية اليوم لذا والمستوى العامي ليس كله ملحون بل فيه الكثير من الفصيح في تراكيبه وتأديته فليس من المستحيل رجوع العربية إلى مستوى المشافهة والمخاطبة اليومية بحصر أوجه التقارب بينها وبين العامية، ويجب على المعلم أن ينبه المتعلم إلى وجود هذين المستويين وأنّه إذا استعمل هذا المستوى في مقام الأُنس والمخاطبة العفوية مخففاً فهو عربي، لأنّه إذا اقتصر على صحّة التعبير وجماله فقط واستهين بما يتطلبه الخطاب العفوي من خفة

واققتصاد في التعبير وابتدال واسع للألفاظ تقلّصت رقعة الاستعمال اللغة، وصارت لغة أدبية محضة، والتنبيه على وجود مستوى من التعبير الفصيح لا يقل خفة وعفوية عن العامية هذا فيه تشويق يدفع الناس إلى الإقبال على دراسة العربية وتعلّمها(34)، وكالمعلّم يتحمل هذا أيضا القائمين على الإعلام باستعمال هذا المستوى كلما كان المقام مقام أنس ولا يخفى ما لفئة الإعلاميين والمذيعين من التأثير الواسع في كيفية استعمال الجمهور للغة

2 - 9- أوصاف العربية المستخفة في أحوال الخطاب:

يعتقد عند المعلمين أنّ كل ما هو موجود في العامية هو خطأ في العربية، وهذا من فساد التصور، فالواجب إذن هو إحياء المستوى العفوي للعربية حتى نبني به عربية عفوية في الأداء، إنّ هذا المستوى العفوي ليس هو العامية، بل هو المستوى الذي وجد في المخاطبات بين فصحاء العرب وقت كانت الملكة تكتسب بالسليقة دون معلّم، وقد وصف العلماء هذا المستوى وصفا علميا، ومنه:

2 - 9- 1- الاستخفاف والإضمار:

كل الأوضاع اللغوية يصيبها الاختصار والاختزال في التخاطب العفوي خاصة، وهو تخفيف اضطراري ناتج عن حاجة الناطقين إلى قلة المؤونة، يقول سيبويه: «واعلم أنّ العرب يستخفون فيحذفون التثوين والنون في (ضاربُ زيد) ولا يتغيّر من المعنى شيء، وينجرّ المفعول بكف التثوين عن الاسم»(35)، ويقول أيضا: «وإنّما أضمرُوا ما كان يقع مظهرًا استخفافًا، ولأنّ المخاطب يعلم ما يعني فجرى بمنزلة المثل كما تقول: (لا عليك) وقد عرف المخاطب ما يعني أنّه: لا بأس عليك ولا ضرر عليك»(36)

هذا الاستخفاف بترك ما لم يُحتج إليه ناتج عن كون الكلام تصحبه أدلة خارجة عن اللفظ، هي مجموع القرائن، ومشاهدة الحال ودلالة الإشارة، وحضور المتخاطبين، وتقدّم الذّكر وعلم المخاطب

2 - 9- 2- الدّرج والحدّر والاختلاس:

كان كلام العرب هو الدّرج وهو الحدّر والاختلاس وهو شبيه بالإسكان لإضعافه الحركة مثل: ابنُ نوح، تنطق: اب- نوح، فالضمة التي بين الحرفين المتماثلين أخفي صوتها فكأنّهما متحركان بحركة واحدة، ومثله شهرُ رمضان، تنطق: شه رَرمضان(37)

2 - 9- 3- الاختزال: كذلك اختزال الحروف ومشاكلتها مثل التّقريب والإمالة بين السين والصاد والزاي كالميل بالصاد إلى الزاي كأن ننطق يلصق: يلزق، كذلك التقارب بين الكثير من الحروف الأخرى مثل: خذ ثابتا تنطق: خثابتا ومثل (ذهب سلمى) و(قد سمعت) تنطق: ذهبسّلمى وقسّمعت، ومنذ زمان، ومنذ ساعة: (مزمان)، و(مساعة جيت) تخفيف ل: (منذ ساعة جئت)، كذلك ترك الهمزة في مثل ذيب وبير ومراة وكماة فهي: المرة والكماة، و(قريت الكتاب) (الكتاب 52/2) وكما قال الفراء: «سمع من كثير من الأعراب الموثوق بهم قالوا: أيش هذا؟ وهم يريدون: أي شيء هذا؟ كذلك: ليش بمعنى: لماذا»(38)

2 - 9 - 4- الاستعمال غير المتكلف للألفاظ مراعاة حال الخطاب وعدم الوقف على المتحرك:

إنّ مجموع الأداءات العفوية التي دوّنت عن العرب القدامى أهملت بسبب اهتمام المعلمين بالإعراب فقط وتصحيح بنية الكلمة حتى صار العربي لا يعرف أن النطق بالحركة والتنوين في الكلمة المسكوت عنها ليس من التأدية العربية، يقول الحاج صالح: « في هذه الفصحى التي يتكلف فيها المتكلم أكثر مما هو لازم يكثر فيها الحشو كثرة ليس فوقها من مزيد، وذلك كالاستعمال المستمر لأدوات التوكيد مهما كان مقتضى الحال...، ثم إنّ هذا التكلف قد يبلغ أحيانا درجة اللّحن، وذلك كالوقف على المتحرك بالمتحرك، وعلى المختوم في الوصل بالتنوين بالنون الساكنة» (39) لأنّ الوقف هو حذف للإعراب والتنوين وهو من قبيل التأدية العفوية التي تختلف عن العربية التي تتميز بالإعراب والتنوين، فمن الغلط أن نعلم تلميذ (قلم، كتاب، جمل...)

3- ثالثا: المحور التعليمي:

3- 1- بناء المناهج التعليمية وأهميته في اتحاد الاستعمال الشفاهي والتحريري للغة العربية:

إنّ نجاح التعليم بالنسبة للعربية تحيطه جملة من المشاكل خاصة عدم استجابة المناهج التعليمية لما يتطلبه الاستعمال الطبيعي للغة غير محصور على جانب دون آخر، فلا يقتصر على ما يجرى من تدريب مدرسي بل القدرة على استعمال اللغة في شتى الظروف والأحوال الخطابية، يقول الحاج صالح: «الغاية القريبة والبعيدة التي يرمي إليها كل تعليم للغات الحية هو تحصيل المتعلّم على القدرة العملية على تبليغ أغراضه بتلك اللغة وفي نفس الوقت على تأدية هذه الأغراض بعبارات سليمة أي من تلك التي تنتمي إلى ما تعارفه الناطقون بها أوضاعا ومقاييس» (40) لأنّ اللسان نظام من الأدلة الموضوعية لغرض التبليغ، واستعمال فعلي لهذا النظام في واقع الخطاب، بإحداث لفظ لتأدية معنى وغرض في حال الخطاب، وليست مجرد قواعد مقطوعة عن غيرها، وهذا من الخطأ الذي حصل في دراسة العربية في زماننا، فالنحو كهيكل للغة وقواعد مجرأة شيء، وعلم النحو شيء آخر، والبلاغة تقابل النحو في أنها كيفية استعمال المتكلم للغة والنحو فيما هو مخير فيه لتأدية غرض معيّن

بناء المناهج التعليمية ينبغي أن يكون أساسه الأول هو استعمال اللغة في جميع أحوال الخطاب التي تتطلبها الحياة اليومية، وأن يلم المربون بأسرار هذا الاستعمال، وذلك بإعادة النظر في ضوء ما أثبتته علماء العربية الأوائل الذين أخذوا اللغة عن العرب الفصحاء

لا نتعامل في المراحل التعليمية مع النشء بتعليم العربية كمادة مدرسة مثل المواد ينتظر من التلميذ استرجاعها يوم الامتحان، بل نحاول أن نجريها كوسيلة اتصال فعالة ومستمرة في كل الأحوال، فيجدر بالمعلم والقائم بالتعليم أن يصل فكر الناشئ بالفصحى في جميع أدوار عمره المدرسية، فيسمع بها دروسه، ويؤدي بها أفكاره في كل ما يكتب، يرى الزيات أنّ «تعليم القواعد ليقرأ بها الطالب كتاب المطالعة دون أي كتاب، ويكتب بها موضوع الإنشاء دون أي موضوع، وتدرّس

الأدب على أنه سجل ولادات ووفيات وديوان حوادث وروايات، فذلك هو الذي كرهه الدارسين في اللغة، وزهد الناشئين في الأدب، وصرف أدباء الشباب إلى الآداب الأوربية، فالمتفرنسون مثلاً يحفظون هوقو، ولا يحفظون المتنبي، ويدرسون موليير ولا يدرسون الجاحظ، ويقرأون لامرتين ولا يقرأون البديع، فنشأت التبعية التي فرضت على آدابنا لآداب الغرب، فمذاهب الأدب عندنا هي مذاهب الأدب عند الغرب»(41)

3-2. التعليم والثنائية اللغوية:

يرى الحاج صالح أنّ هذا التباين الذي تشكله الثنائية اللغوية بين الفصحى والعامية من أسبابه فشوّ الأميّة مما ساعد على إبعاد لغة الثقافة المشتركة من لغة التخاطب، لذا فإزالة الأميّة من بين الحلول لهذه المشكلة، كما أنّ لدور النشر في العالمين العربي والإسلامي أن تقوم بدور فعال في مجال تعليم اللغة العربية بين العرب لمحو تلك الأميّة، كما أنّ من الحلول الممكنة البحث العلمي الجاد الذي يهدف إلى حصر ما تركه لنا علماء العربية ممن شافهوا الأعراب، وحصر الأغلب من التراكيب العفوية المستعملة في لغة التخاطب الحالية ثم المقارنة بين المستويين حتى يتوصل إلى حصر المشترك بينهما ثم يؤلف بالاستعانة بالمربين كتاباً لتعليم اللغة المنطوقة المشتركة لتكون كمرجع للمعلمين لتعليم مستوى المشافهة الذي فقدته العربية منذ أن غزت الأميّة الناس(42)

كذا تكوين دورات تدريبية للتوعية بخطر هذه الثنائية(مشافهة/تحرير) التي قد تؤدي إلى الفصل النهائي بين المشافهة والتحرير، كما تنظم دورات تدريبية مماثلة للمذيعين والذين يشافهون الجمهور من خلال وسائل الإعلام، ثم تدريبهم على التمييز بين الأداء الترتيلي الذي يتطلبه المقام كنشرة الأخبار والمحاضرات، والأداء الاسترسالي الذي تتطلبه الموائد المستديرة والمناقشات والحوارات، ولغة المسرح والأفلام التي تمثل واقع الناس، وبتعويدهم على استعمال الرصيد اللغوي المشترك تتوحد اللغة(43)

كذلك لغة الإشهار والإعلان في المجال الإعلامي التي لها صدى واسع في أوساط المجتمعات صارت تطغى عليها العامية، بل الدخيل أيضاً، فيجب إعادة النظر في هذا المنوال بالاهتمام بالتعبير المستخف من العربية من خلال حصر أوجه التقارب بينها وبين الدارجة، وهي جزء من الفصحى إذا صيغت من الدخيل الأجنبي، كما أنّها الخط المتقدم للدفاع عن الفصحى فإذا سقطت في وجه العولمة اللغوية فإنّ الدفاع عن الفصحى سيضعف(44)

ينبغي إعادة النظر في تكوين المعلمين بالاعتماد على العربية الفصيحة المستخفة التي نقلت عن العرب في زمان الفصاحة والتي تتصف بالتخفيف والاسترسال الذي يقتضيه مقام الأنس(45)

3-3. مفردات اللغة والمستوى العفوي في مناهج التعليم:

3-3-1. ظواهر اللغة الإفرادية:

اللغة وضعت على تعدد الدلالة في الأصل، ولا يدل اللفظ على المعنى الواحد إلا في الاستعمال، وقد يقع اللفظ على المعنيين المتضادين كما في ظاهرة المشترك اللفظي، مثل لفظة (جلل) تدل على العظيم والحقير، لكن في حال الاستعمال يأتي بعدها أو قبلها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا ذلك المعنى، ففي قول الشاعر:

كل شيء ما خلا الموت جلل والفتى يسعى ويلهيه الأمل (46)

يدل ما يتقدم عليه ويتأخر أن معناه: كل شيء ما خلا الموت يسير، أما قول الشاعر:

فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمي (47)

أراد بقوله جللا: عفوا عظيما؛ لأنه لا يفخر بعفو عن ذنب حقير

هذا من المتداول في العربية لكن لا ينبغي شحن ذاكرة المتعلم بكثرة المفردات لأن ما يستعمله من المفردات في واقع الخطاب هو عدد محدود، فهناك المرادف والنادر والشاذ فلا حاجة لأن نثقل به كاهل المتعلم، ويكتفى بالقدر المشترك الذي يكثر دورانه على ألسنة المخاطبين، فينبغي ألا يزيد الرصيد اللغوي على ما يحتاج إليه المتعلم وعلى ما يكون قادرا على إدراكه في سن معينة، يقول الزجاجي: «ليس كل العرب يعرفون اللغة كلها غريبها وواضحها ومستعملها وشاذها بل هم في ذلك طبقات يتفاضلون فيها، أما اللغة الواضحة المستعملة سوى الشاذ النادر فهم فيها شرع واحد» (48) والكتب المدرسية اليوم مشحونة بكثرة المفردات التي لا يحتاجها المتعلم في خطباته والتي تحمل وصف الغريب أحيانا، وهي تكاد تخلو من الألفاظ الدالة على المسميات الحديثة كأسماء الأدوات والملابس وغيرها من المفاهيم الحضارية

وكثرة المرادف والمشارك في اللغة قد يكون عائقا في العملية التعليمية؛ فقد يكون مشوشا للذهن في تصورات، لأن عدم الدقة في التعبير يؤدي إلى عدم الدقة في التفكير خاصة في المجال العلمي، فالتعبير العلمي يحتاج إلى ألفاظ متباينة للدلالة على مسميات متباينة، ونترك للمتعلم الكشف عما هو مشترك بإجراء التأثير في نفسه بخلقه لصور المعاني (إحداث النظير) عن طريق المران وضمن اكتسابه للملكة

3- 2. الاهتمام بما هو عربي بلا تكلف ولو كان دخيلا:

وعدم ثبوت اللفظ في القواميس التي وصلتنا لا يعني عدم فصاحته؛ فهناك الكثير من الألفاظ والصيغ في النصوص لم ترد في القواميس، ولماذا يجب أن نقول: في ضوء كذا، ولا نقول: على ضوء كذا؟ فهذا منطوق يؤدي إلى طرح الكثير من العبارات الفصيحة، يرفض بعض المعلمين والأساتذة أن نقول على ضوء كذا وهو تعبير مقتبس من اللغات الأوربية، (49)، وهذه مشكلة أخرى أن نعلم ما لازدواجية اللغة من شديده الوطأة على الكثير من مزدوجي اللغة

3 - 4- تراكيب اللغة والمستوى العفوي في مناهج التعليم:

3 - 4 - 1- التراكيب ومراعاة أحوال الخطاب:

وكما أن للفظ الواحد أكثر من معنى فللمعنى الواحد أكثر من لفظ يدل عليه، وينطبق هذا المفهوم على التراكيب أيضا؛ فيكون التركيب الواحد له أكثر من معنى يدل عليه (معنى وضعي بوضع اللغة، ومعنى إعلامي إفادي)، وللمعنى الواحد أكثر

من تركيب يدل عليه بدليل اختلاف كلام المتكلمين، ومثال الأول: كدلالة الخبر على النهي أو الدعاء أو التعظيم، أو: دلالة الاستفهام على السؤال أو الإنكار أو التعظيم، ويدخل في هذا باب النكت والكنايات والاستعارات أما مثال الثاني (تعدد اللفظ لنفس المعنى): "ضربتُ زيدا"، و"ضرب زيد"، و"زيدا ضربته"، اللفظ مختلف والمعنى واحد

والمقصود من تعلم اللسان هو إكساب المتعلم القدرة العملية على استعمال اللسان، وليس أن نجعل منه عالما متخصصا في علوم اللسان، والذي يقصده المربي في تعليم اللغة هو إكساب المتعلم القدرة على إجراء القواعد النحوية والبلاغية في واقع الخطاب، فلا نكتفي بمجرد السلامة اللغوية بل مهارة التصرف في بنى اللغة بما يقتضيه حال الخطاب لنحقق القدرة على الاتصال اللغوي الفعال

تدريب المتعلم لإكسابه مرونة لغوية في أحوال الخطاب، وكون هذه الأخيرة غير محصورة لارتباطها بالمعاني لا يعني عدم القدرة على استنباط قوانينها ومثلها ومن ثم ضبط العبارات التي تستجيب لها، وهذه المثل عبارة عن أصول يحصلها المتعلم عن طريق الممارسة الخطابية، وعن طريق التمارين أيضا كتمارين الاستبدال والتقديم والتأخير والتحويل على مثال سابق بالانتقال من كلمة إلى أخرى ومن صيغة إلى أخرى بتفريع هذا من ذاك على مثال سابق، ومن ثمة خلق القدرة على التصرف في البنى اللغوية بما يقتضيه حال الخطاب، حينها يكون المتعلم قد حصل مهارة التصرف في البنى اللغوية كلما زادت وقويت زاد النمو اللغوي

وبهذا يصبح المشكل في تدريس نحو اللغة ليس محصورا في اختيار الطريقة القياسية أو الاستقرائية؛ لأن القاعدة لها قانون محرر ثم نمط سلوكي ومثال يكتسبه المتعلم، أي اكتساب القدرة الإجرائية، ومتعلم المهارة اللغوية غير مفتقر إلى معرفة القانون المحرر، فالاستقراء إذن والقياس يجريان بكيفية متداولة عند المتعلم، فهو يستقرئ ثم يقيس على الفور بكيفية لا شعورية غالبا ثم يعود إلى الاستقراء وهكذا، وخلق القدرة على التصرف في البنى اللغوية عمل تدريبي ترسيخي يعتمد على تصفح ما اختزنه ذاكرة المتعلم لإجراء القياس، والأول استقراء، لذا ينبغي أن يُراعى في بناء المناهج ترسيخ المثل الإجرائية في المحتوى التعليمي

أما تغيير الدلالة فكذلك يكتشفه المتعلم بنفس الطريقة السابقة، أي هو غير مفتقر في البداية إلى معرفة القانون الذي يضبط انتقال المعاني من الوضع إلى الاستعمال، لكنها تجري في مخيلته كمهارات مكتسبة، لأنه إنما يتعلم المعاني المتداولة في الخطاب، فهناك لفظ وضعي خالص ومعنى وضعي خالص، كلاهما مجرد، وهناك لفظ خطابي ومعنى خطابي يتحول كل وضعي إلى ما هو عليه في الاستعمال، فاللفظ والمعنى موجودان في كل من الوضع والاستعمال، وليس هناك تقابل بين اللفظ والمعنى من جهة وبينهما وبين الاستعمال من جهة أخرى، وهذا موجود في التحليل التداولي الغربي (50)

3 - 4 - 2- الاهتمام بما هو فصيح من كلام العامة:

أخرجت الكثير من العبارات الفصيحة بسبب وجودها في اللهجات العامية، وهذا مما أدى بالعربية إلى الانزواء في زاوية الخطاب الأدبي وعدم خروجها إلى ميدان

المشاهدة اليومية، كما أنّ الكثير من الأخطاء التي ذاعت في أوساط المثقفين كدخول هل على حرف التنفيس، أو استعمال أدوات التوكيد دون النظر في المقام وحال الخطاب (قد وصل فلان، لقد وصل فلان بدلا من: وصل فلان)

3-5- تفعيل الطرق التعليمية الحديثة:

لعل أهم نقطة ضعف أن نعلم اللغة بالاعتماد على النصوص الأدبية والتركيز على القواعد ونهمل لغة التخاطب؛ فعوضا أن نعلم المتعلم اللغة نلتجئ إلى واسطة لغة التحرير بالتالي إهمال المقصود من هذا التعلم وهو القدرة على تداول اللغة، ولا يحصل ذلك إلا بالاهتمام بالطرق المباشرة كطريقة السمع البصري، بإشراك المتعلم في العملية التعليمية مشاركة فعالة تجعله ينمي معارفه حتى تكون له القدرة على الخلق والإبداع، وهذا يحصل بأمور منها:

3-5-1- المشاهدة:

تشكل المخاطبات اليومية القسط الأكبر من استعمال الناس للغة، لذا كان الاهتمام بالنصوص الأدبية في تعليم اللغات يشكل عائقا أمام المتعلم؛ إذ لا يجد فرصة لينمي قدرته على التعبير الشفاهي؛ لأنّ إهمال المشاهدة والتركيز على الجانب الكتابي التحريري وتعليم الأساليب في ذاتها كنماذج للأساليب الجميلة دون مراعاة الاحتياجات التعبيرية الحقيقية التي يشعر بها المتكلم عند استعماله الفعلي للغة في مختلف أحوال الخطاب، يؤدي ذلك إلى نوع من التناقض يتسبب هذا الأخير في الطعن في اللغة التي ينبغي أن يتحد استعمالها الشفاهي والكتابي، حيث يرى عدم ملائمتها للحال الطبيعية للخطاب فتصبح اللغة عنده أدبية محضة غير صالحة للتعبير في جميع أحوال الخطاب، فينبغي إحياء التعبير الفصيح غير المتكلف لتدخل العربية في جميع ميادين الحياة بالتركيز على الجانب المسموع والمنطوق في العملية التعليمية

3-5-2- الانغماس اللغوي:

المهارة اللغوية في اكتساب أي لغة لا تنمو ولا تتطور إلا في بيئتها الطبيعية التي يُسمع فيها صوت تلك اللغة، فينبغي نشر صوت العربية في جميع الوسائل الإعلامية والتكنولوجية ما أمكن لإحداث الانغماس

3-5-3- الاهتمام باختيار المادة اللغوية وتوزيعها بكيفية متدرجة في الدروس:

يُعتمد في اختيار المفردات على التحريات الميدانية، واختيار المفردات التي يكثر مجيئها ودورانها في المحاورات، فلحال الخطاب أهمية كبيرة في التحكم في أفعال الكلام، وإكساب الملكة لمتعلم اللغة؛ إذ وجوده بكيفية عفوية ومتكررة في حال خطاب معينة يستدلّ بها على مراد مخاطبه، وعلى المناسبة القائمة بين الألفاظ ومدلولاتها، وهذا يجعله يسرع التحكم في هذه اللغة

3-5-4- مراعاة العفوية ومقام الأنس:

فليس كل ما تستعمله العامة غير فصيح: على المربي والمعلم الاهتمام بما هو متداول في لغة العامة ويقترّب جدا من العربية أو هو عربي، حتى يكون ما يُصاغ

في مناهج التعليم وكتبه من المتداول ولا يشعر المتعلم بوجود الفجوة بين مستويين من التعبير

3-5-5- والجدير بالاهتمام هو إكساب المتعلم القواعد النحوية بكيفية ضمنية من غير أن تُعرض على شكل قاعدة محرّرة، بل بترسيخها في السلوك اللغوي حتى تصبح آلية من آلياته دون ما شعور من المتعلم
3-5-6- حصر أوجه الأداء من كلام العرب:

يقوم العلماء والباحثون بتحديد ما ودراستها وتصنيفها والتمثيل لها وإدراجها في مناهج التعليم والكتب المدرسية، وهي كتب يعتمد عليها الباحث في صناعة تعليم اللغة كمرجع للوضع اللغوي العربي

إن كثرة ما دونه علماء اللغة من تأديات للعربية هو الذي يجب أن يعتنى به، ولو كان الكثير من الألفاظ الفصيحة موجودا في العامية فإنه لن يغير مسارها حتى يتسنى لها الكثير من التأديات العفوية التي كانت للعربية لأن الملاحظ أن من يلجأ إلى استعمال الفصحى كما تعلمها في المدرسة والإذاعة والتلفزة في الظروف العفوية (كالعامل وفي الشارع ومع الأصدقاء) يتعرض بذلك للسخرية والاستهزاء، لكن إحياء التعبير الفصيح غير المتكلف بدءا بالمدرسة والإذاعة ووسائل الإعلام، وتعميم التعليم يصير لغة التخاطب شيئا فشيئا فصيحة

4- رابعا: المنظور السياسي للغة:

تدخل الإنسان ليس دائما يكون بغير جدوى، وأكبر دليل على ذلك هو ما يحصل في كل زمان من التأثير العميق لمجرى التطور اللغوي بما يتخذه رجل السياسة من القرارات، كما هو الذي جرى من الناحية الفرنسية في القرن السابع عشر من التأثير، ففي سنة 1539م اعتمد فرنسوا الأول فكرة التوحيد اللغوي الثقافي، وإضعاف تأثير اللهجات الأخرى ففرضت، وهذا سلوك اجتماعي سياسي وإن كان لا يوصف بالعلمي إلا أنه قد يكون حقا، وتأثير المدرسة ووسائل الإعلام في اللغة خير دليل على ذلك، وهذا القرار السياسي يمثل تعريف فون هومبلت للغة حين قال: إن اللغة الوطنية هي لغة تملك جيشا وبحرية، أي: هذه القوانين تحتاج إلى قرار سياسي قوي، لكن نقول: إن العربية تملك قبل الجيش والبحرية كتاب الله عز وجل، وتمتلك تراثا حضاريا ضخما، فالمسار الطبيعي لتكوين الدول أن تكون هناك لغة موحدة، فإذا اتجه الأمر في المنحى المعاكس يكون خطرا على الأمن اللساني ومن ثم الأمن القومي، والدول التي لا تستطيع في نظامها التعليمي أن تكون فردا يتعامل إداريا بلغتها القومية تعاني من مشكلة في الأمن اللساني، خاصة إذا تكلم من بيده الأمر بغير هذه اللغة، أما قضية الاستحياء فتعني المقبولية الشعبية للانسلاخ من الهوية (أن يستحيي من استعمال لغته الوطنية)

فلا يخفى ما للقرار السياسي من أهمية في إصلاح المنظومة التعليمية، ومن ثمة الإصلاح اللغوي

خاتمة:

ما يمكن أن نختم به مداخلتنا هذه هو التوصية بالإصرار على التشويق في تعليم العربية ونشرها وإضفاء القيمة عليها، والتحذير من الدعوات المنفردة وإن كان من

يدعو إليها عربي، ثم التوصية لكل مسؤول أو من بيده أمر من أمور العرب والمسلمين أن يسعى في تدبر ما هو كفيل بجعل العربية مطلوبة من الجميع، وألا تغيب العربية من أي مكان أو مجال في الدولة أو المجتمع العام إطلاقاً، ثم ربط العربية بالعلم والتكنولوجيا، والسعي لتعريب العلوم والأفكار العلمية ما أمكن، أما في جهة الأدب فالسعي لنشر الأدب العربي واستثماره واستخراج ما فيه من نظريات بدلاً من استيراد النظريات الغربية إلا ما كان مفيداً منها فائدة علمية، وأمر آخر لعله أهم وهو إعادة النظر في المنهج الأدبي عموماً والنظر في شرائط المنهج ووظائف اللغة

هوامش المداخلة:

- (1) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح عبد الرحمن، موفم للنشر، الجزائر، 2007م، 160/1
- (2) ينظر: لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الإفريقي، تحقق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، المقدمة
- (3) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1997، ص23
- (4) نفسه، ص26
- (5) سورة الحجر، آية: 9
- (6) يُنظر فصول كتاب: مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين: مؤسسة هنداوي، مصر- القاهرة، 2014
- (7) ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح عبد الرحمن، 178/1
- (8) Marvin K. Opler, philosophy and language, thought and reality (Review) j, carrol, phenomenological Research, 1956, p23
- (9) ينظر: لسان العرب، المقدمة
- (10) الفصحى لغة القرآن، الجندي أنور، الموسوعة الإسلامية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1995، ص302
- (11) تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1993، ص244
- (12) نفسه، ص16
- (13) الاقتراح في علم أصول النحو، تح: محمد حسن إسماعيل الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1998، ص116
- (14) الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، الحاج صالح عبد الرحمن، الرغبة، الجزائر، 2012، ص47
- (15) ينظر: الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقق عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط03، 1983، 72/1
- (16) نفسه: 136/1
- (17) الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي، صبيح، القاهرة، دتا، 71/4
- (18) الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، القاهرة، 1386هـ، 117/1
- (19) مفتاح العلوم، السكاكي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1937م، ص170
- (20) ينظر: الخطاب والتخاطب، الحاج صالح، ص133 (هامش)
- (21) دلائل الإعجاز، الجرجاني عبد القاهر، تح: محمد رض، القاهرة، 1335هـ، ص320

- (22) المقدمة ابن خلدون، ط1 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دتا، ص: 638
- (23) نفسه، ص1084
- (24) والأصول يدرسها المتخصص لا المتعلم حتى لا يقع خلط في فهمهما يسمونه تيسير النحو
- (25) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، 66/1
- (26) نفسه، 68/1
- (27) المقدمة، ابن خلدون، ص565
- (28) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، 69/1
- (29) الخصائص، ابن جني، 244/1
- (30) ينظر: الكتاب، سيبويه، 108/1، 114/1، 120/1
- (31) البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هرون، القاهرة، 1984، 112/3
- (32) معاني القرآن، الفراء، تح: محمد علي النجار، القاهرة، 1966، 50، 51/2
- (33) البيان والتبيين، الجاحظ، 114/3
- (34) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، 164/1
- (35) الكتاب، سيبويه، 83/1
- (36) نفسه، 83/1
- (37) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، 77/1
- (38) معاني القرآن، الفراء، 53/2
- (39) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، 68/1، 69
- (40) نفسه، 174/1
- (41) لغتنا في أزمة ، أحمد حسن الزيات ، مجلة مجمع القاهرة ، مجلد 10 / 1958م، ص48
- (42) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، 82/1، 83
- (43) نفسه: 82، 83/1
- (44) "خطر الدخيل على الفصحى والعامية"، أبو القاسم سعد الله، مجلة اللغة العربية، الجزائر، 2001، منشورات ثالة، ع4، ص26
- (45) الفصاحة هي السلامة اللغوية وكون الفصيح قد اكتسب العربية من محيطه الفصيح بكيفية عفوية ولم يتأثر بلغة أخرى
- (46) ينسب للبيد بن ربيعة، ينظر: المزهر، السيوطي، تح: محمد البجاوي ومحمد الفاضل، القاهرة، ط2، دتا، 388/1
- (47) نفسه
- (48) الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، تح: مازن المبارك، القاهرة، 1959م، ص92
- (49) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح، 165/1
- (50) ينظر : الخطاب والتخاطب، الحاج صالح، ص202

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- الاقتراح في علم أصول النحو، تح: محمد حسن إسماعيل الشافعي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1998
- الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، تح: مازن المبارك، القاهرة، 1959م
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الحاج صالح عبد الرحمن، موفم للنشر، الجزائر، 2007م
- البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هرون، القاهرة، 1984م
- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1993

- الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، القاهرة، 1386هـ
- الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، الحاج صالح عبد الرحمن، الرغبة، الجزائر، 2012
- دلائل الإعجاز، الجرجاني عبد القاهر، تح: محمد رض، القاهرة، 1335هـ
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1997
- الفصحى لغة القرآن، الجندي أنور، الموسوعة الإسلامية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1995
- الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحق عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983م
- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الإفريقي، تحق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م
- مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين: مؤسسة هنداوي، مصر- القاهرة، 2014
- المزهر ، السيوطي، تح: محمد البجاوي ومحمد الفاضل، القاهرة، ط2، دتا
- معاني القرآن، الفراء، تح: محمد علي النجار، القاهرة، 1966
- مفتاح العلوم، السكاكي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1937م
- المقدمة ابن خلدون، ط1 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت،
- الموافقات، الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي، صبيح، القاهرة، دتا
- carrol , j : language.tought and realit (Review)Marvin
- K.opler ,philosophy and phinomenological Research , 1956, p23

المقالات:

- (خطر الدخيل على الفصحى والعامية)، أبو القاسم سعد الله، مجلة اللغة العربية، منشورات ثالة، ع4، الجزائر، 2001م
- (لغتنا في أزمة)، أحمد حسن الزيات ، مجلة مجمع القاهرة ، مجلد 10 / 1958م